لإرادة التغيير الاجتماعي بتجسيد بقائي محمد عبده الدراجي

تطور
طرق وسائل التعليم

قاسم يحيى اسماعيل

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

تمهيد

ان التعليم يؤدي دوراً بارزاً واساسياً في عملية التطوير في المجتمع من النواحي الثقافية والعلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فهو ليس مجرد اداة تنساق وراء التطوير ، وان ما حدث في تاريخ التعليم ، وحتى الآن انما هو في كثير من جوانبه ينساق وراء الاندفاعات والرغبات الطارئة دون ان يكون هناك تمحيص وتخطيط واسع يتسم بالشمول والنظرة الموضوعية للواقع خاصة في اعداد المناهج .. ولعل السرعة الكبيرة المذهلة التي يتطور فيها العالم والمجتمع العربي في مختلف نواحيه هي التي تستلزم من نظمنا التعليمية الاستجابة لواقع التطور هذا ، والتي تتطلب بالضرورة النظرة الشاملة والعميقة .

ومن اجل اعداد نشء قوي وجيل جديد من خلال ترجمة هذه النظرة الشاملة العميقة ، لا بد ان يستند التعليم الى اتباع طرق اعداد وتدريب لهذه البراعم في مختلف ميادين الحياة .

ولعل من اسرار تقدم الحضارة العربية وازدهارها ما يكمن في حرية التعليم حيث ان التعليم كان حراً من كل قيد ، اللهم الا الميل والرغبة «هذا يهوى العلوم الشرعية فيتجه اليها ، وذلك يعشق الحديث فيرحل لطلبه من رجاله ، وثالث يميل الى علم الكلام ، او التصوف ، او الطب او الرياضيات فيتعمقها . وافضل دراسة ما كانت عن ميل اصل في النفس » (١) .

كما ان من مستلزمات التربية العلمية ان ترتفع الى مستوى المسؤولية من اجل تحقيق تعليم افضل وتعلم افضل للعلوم يقود الى اعداد جيل مفكر منتج يستطيع مواجهة تحديات المستقبل بكفاءة وجدارة .

فهي ، حينئذ ، ذات بعد قومي اشتراكي حضاري في آن واحد ، وذلك ما اشار اليه الرفيق «صدام حسين »في مقولته «ان نوع الانسان العربي الان متفوق على الانسان العربي قبل عشر سنوات »ولم تكن تلك الابعاد الحقيقية

التي تكمن وراء تشريع قانون التعليم الالزامي وقانون الحملة الوطنية الشاملة الا الصورة الصادقة لاشراقة الحزب الذي آمن به ومنذ تأسيسه ، فقد اكدت المنطلقات النظرية للايدلوجية العربية الثورية على اهمية الانسان المتعلم والمثقف وقد ربطت ادبيات حزب البعث العربي الاشتراكي ضرورة تعليم الانسان العربي من اجل تعزيز دوره النضالي والحقائق المستقبلية وتأكيد تطور الامة العربية ومجانبتها للاخطار (٢).

ويأتي هذا التأكيد على اهمية التربية والتعليم بكونه قطاعاً خطيراً ورائداً في بناء الثورة العربية الاشتراكية .

كما اشار التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي الى اهمية التربية والتعليم وما يقوم به من دور حاسم اولى الحزب «هذا الجهاز اهمية كبيرة والح الحاحاً شديداً ... على اجراء تغييرات جذرية فيه ، بتصفية ما يعشش فيه من ذوي الاتجاهات الرجعية والبرجوازية وغيرها » (٣) شملت جميع المراحل ابتداء من رياض الاطفال حتى اعلى مراحل التعليم الجامعي.

فمن اجل تنفيذ هذه الاهداف يجدر أن نبدأ بطرق التدريس لما لها من اهمية خاصة في التعليم بوجه عام .او ما تسمى بالوسائل العملية التي تنفذ بها اهداف التعليم وغاياته . وقد كان للتعليم الاسلامي «الطرق الخاصة » التي تميز بها وسار على نهجها (٤) وكما سنبين ذلك فيما بعد .

ان تطور طرق ووسائل التعليم وتنوعها يرتبط ارتباطاً داخلياً ومباشراً «بفضل زيادة اهتمام الناس بالعلم والعلماء وكثرة طلاب العلم ، والتعرف على وسائل جديدة من حضارات اخرى ، واتباع كل عالم طريقة خاصة بالتعليم » (٥) ، والثقافة العربية تجعل من التراث دروساً تستلهم الخبرة والعبرة والمعرفة ، والطريق الى الغد الافضل . (٦)

فلذلك اقدمت حكومة الثورة ، وهي تتصدى للواقع التعليمي الفاسد الذي ورثته ، ان تبدأ بتحديد اهداف التعليم استناداً الى مبادىء الحزب والثورة

والى الفلسفة الاجتماعية للدولة ، فتشكلت هيئة عليا للتخطيط التربوي ، ومن جملة ما أكدته من اهداف عامة للتربية ، «عرض الثقافة العربية الاسلامية وابراز روحها الاصيلة وعناصرها السليمة » (٧) ومساهمة متواضعة من اجل ابراز هذا الجانب ، ومشاركة من اجل توثيق وبحث بعض الطرق التعليمية التي كانت متبعة قبل نشأة المدارس وتطورها وقد جاء البحث ليتناول ابعادها التاريخية ومدى انسجامها مع واقع الامة العربية في مراحل تطورها .

التعليم قبل الاسلام

اتسع التاريخ العربي لميادين متعددة سياسية وادارية واجتماعية وغيرها ، ولكن هل يمكننا العثور على ما يشير الى التدريس في العصر الجاهلي ؟

لذا يجدر بنا ونحن نتناول التطورات التي حصلت في طرق ووسائل التعليم ان نتطرق الى الجانب التاريخي للتعليم وطرقه والتي حصلت عند الامم في مختلف العصور ، وما واجهها من صعوبات عديدة لاقاها رجال التربية وتذليل تلك الصعوبات باتباع طرق تدريسية منوعة من اجل وضع اليد على اسباب الفشل والنجاح ، ومحاولاتهم تذليل تلك الصعوبات لخلق نشء جديد وتربيته وتهذيبه وفق اسس تربوية سليمة وصحيحة .

ولو حاولنا ان نعود الى العصور المتقدمة من تاريخ الحضارات خاصة في مصر ، وبلاد الرافدين لوجدنا ان العارفين والمتعلمين كانوا يتمتعون بمكانة ممتازة. وكان الكتبة يمثلون طبقة قائمة بذاتها يميلون الى اعطاء منتجات مهنتهم قيمة تفوق قيمة اختبارات الحياة اليومية . والاتجاه العلمي اخذ ينشأ في المدارس والاديرة . والواقع — كما يشير جوردن تشايلد — أن نشأة العلوم النظرية قد تولتها طبقة تتمتع باوقات الفراغ وقد اعفاها المجتمع من الاعمال الفعلية التي بها يزول التعارض بين العقل والمادة ولذلك اصبحت هذه الطبقة منعزلة عن مصادر المكتسبة بالاختيار (٨) .وزيادة على ذلك فانه يستنتج من النصوص الباقية ان التعليم في المدارس ربما كان حسياً وتقليدياً كما هو في مصنع الصانع على وجه التعريب . ونستنتج ايضاً بأن التعليم لم يكن

عاماً وانما كان خاصاً على تلك الطبقة .

هذا وان معظم المدارس التي كانت تدرس فيها العلوم المتقدمة في الحضارة المصرية القديمة كانت ملحقة بالمعابد ، اذ كانت العادة السائدة بين ذوي المهن والاطباء وغيرهم ان يحصلوا على اذن خاص ، وان تكون لهم الصلة باحد المعابد . والمصريون القدماء كانوا يطلقون على معاهد العلم « دور الحياة » (٩) .

ان الحالة الصحيحة للتربية والتعليم هي الخطة المقتبسة من نظم حياة الشعب والتي ترمي الي خدمة مثله العليا (١٠) .

وعلى الرغم من تقدم التربية لدى اليونان واهتمام المواطنين اليونان بها . بقيت تسير بصورة حرة

دون ان تتقيد بمنهج محدود ولا بطريقة خاصة بها (١١) بل كان العلم أغلب الامر طبقياً، تحتكره فئات بعينها، ولعلها كانت تمارسه خفية، ولذلك اتسم العلم في تلك الايام بميسم الكهانة والسحر، يمارسه الكهان ورجال الدين، يعكفون عليه في صوامعهم وهياكلهم (١٢).

ولدى الرومان فأن مناهج التعليم وضعت مطابقة لمناهج اليونان لابل ان الكثيرين من رجال التعليم والتربية كانوا من الشعب اليوناني نفسه (١٣) وأما عن طرق التدريس في المدارس الابتدائية الرومانية فقد كانت طريقة الحفظ هي السائدة ومن وسائل اجراء التعليم، العصا والتخويف.

اما عن طرق التدريس في العصور الوسطى، فقد كان للمسيحية اثر كبير في التربية والتعليم، وكان لها دور فعال بالنسبة للحياة ايضاً. وكانت طريقة التدريس تعتمد بالدرجة الاولى على الذاكرة ، حيث ان المواد التي تعطي كلها مواد نقلية لاعقلية ، لذلك كانت تحمل ذاكرة الطلاب بحمل لايطيقه اكثرهم (١٤) .

ومن الاساليب التي اعتمدتها الكنيسة ، العقاب. حيث كان قاسياً في جميع المدارس الدينية اذ كانوا يعاقبون الاطفال بالحرمان والحبس والعقاب البدني، وغايتها من استخدام تلك الاساليب« ايجاد الطاعة المطلقة في نفوس الطلاب لذلك كان من نتيجته ان قلت في الطلاب روح الحماس والشخصية الذاتية الضرورية لحياة الفرد ونموه مع الهيئة الاجتماعية» (١٥) ولذلك لن تحقق الغاية المرجوة من التربية في اعتمادها على مثل تلك الاساليب.

اما عن حال التعليم قبل ظهور الاسلام، فيذهب الدكتور« جواد علي» الى القول« لم نعثر على أي نص جاهلي فيه شيء عن التدريس وعن مواد الدراسة عند الجاهلين لنستنبط منه مادة عن الدراسة عند عرب الجاهلية» (١٦) الا انه يشير إلى الموارد النصرانية الشرقية عن التربية والتعليم وخاصة، نصارى العراق، وعن مواد المعرفة التي كانوا يعلمونها للتلاميذ ولطلاب المدارس العالية، يستنتج من خلالها بأن« مدارس الانبار والحيرة والقرى العربية الاخرى، لابد وأن تكون قد سارت وفقاً لمنهج اهل العراق في تعليم ابنائهم في ذلك الوقت» (١٧) ومن الملاحظ ايضاً، انه لم يكن هناك في العصور الوسطى حد فاصل بين العلماء المدرسين والعلماء الذين لم يتخذوا التدريس مهنة لهم ولذا كان الجميع يعملون بأجر او تطوع لتثقيف الناس وتعليمهم، اما عن طريق حلقات تعليمية او بتأليف الكتب ونشرها (١٨).

والمنهج عامة يقوم على تعليم مبادئ القراءة والكتابة واجادة الخط وشيء من الحساب والامثال والحكم ومبادئ الدين.وهي المواد الاسلسية التي كانت تعلم في الكتاتيب في بلاد الشرق الاوسط في ذلك الحين ، والتي لاتزال تدرس في الكتاتيب القديمة حتى اليوم (١٩).

ومن الطرق المتبعة في تعليم الخط للاطفال ،ان يخط المعلم او (خليفته) او من يقوم مقامه من التلاميذ المتقدمين سطراً من الحكم والامثال او من الكتب السماوية،لينقش التلميذ سطوراً مثلها على لوح يحاول الاجادة جهداً امكانه

في كتابتها لتقوية يده على الخط (٢٠).

اما عن تدريس العربية في الانبار وفي الحيرة، والتي درسها نصارى العراق لم تتوقف على تدريس مفردات اللغة وقواعدها واصولها« ولايعقل ان يكون المراد من العربية، الكتابة والقراءة بها فقط، بل لابد وان يعلم معها شيء من أصول الكتابة من كيفية قط القلم ورسم الحروف، وانواع الخطوط، ثم الامثال والحكم، وقواعد اللغة وآدابها، أي منهج المدارس المقرر في الشرق الادنى ذلك العهد. وقد كان رجال الدين يسيرون عليه ويتبعونه في مدارسهم»(٢١).

هذا عن واقع حال التعليم في المدارس المسيحية، اما عن عرب الجاهلية فأنهم عاشوا خاضعين للخرافات والاوهام، عبدوا الاصنام ووكلوا اليها امورهم، كما لجأوا إلى الكهانة والعرافة لفض نزاعاتهم ويذهب بعض الباحثين الى ان«القراءة لم تكن منتشرة في بلاد العرب قبل ظهور الاسلام»(٢٢)ولكن تطور الاحداث خاصة عند ظهور الاسلام، اثبت، بلا ادنى شك، بأن الاستعداد كان متوفراً لديهم، وهذا مما دعاهم إلى الاقبال الشديد على التعلم، وانتشار القراءة والكتابة بشكل واسع..

(٣)

طرق التعليم في الاسلام

لقد بشر الاسلام الحنيف منذ اول عهده بالعلم ورفع من قدر العلماء، وحث على طلب العلم، وان معجزته كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) (٢٣) ونزول اول اية على الرسول الكريم (ص) « اقرأ باسم ربك الذى خلق » وجاء في القرآن الكريم في مواطن عديدة حث الناس على القراءة وطلب العلم، منوهاً بمنزلة العلماء الرفيعة واهمية العلم وطلبه (٢٤).

كما ان الرسول الكريم (ص)، كان من اهدافه العمل على نشر التعلم منذ اول تأسيس الدولة الاسلامية حيث ان عدد الكتابيين كما يذكر«القلقشندى»(٢٥) لم

يكن يزيد على بضعة عشر نفرا ، فنراه (ص) قد امر في اعقاب معركة بدر الكبرى الاسرى الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة بان يعلم كل منهم عشرة من اولاد المسلمين القراءة والكتابة نظير فدائه . ثم تتابعت الاحاديث النبوية تحث المسلمين على التعلم وتدفعهم إلى طلب العلم(٢٦).ومماتجدر الاشارة اليه ان الرسول (ص)« مر بمجلسين في مسجدهفقال:كلاهماخيراحدهما افضل من صاحبه اما هؤلاء : فيدعون الله ويرغبون اليه فان شاء اعطاهم وان شاء منعهم ، واما هؤلاء فيتعلمون الفقه والعلم ويعلمون الجاهل فهم افضل ، وانما بعثت معلماً قال ثم جلس فيهم » (٢٧) واذا كان العلم والتعليم قد حظي في سني الاسلام المتقدمة بالمكانة الرفيعة على يد النبي (ص) وصحابته وخلفائه ، فانه قد وجد عند خلفاء الامويين والعباسيين استجابة لم تقتصر آثارها على المسلمين فحسب بل كانت لها اصداء عميقة الاثر في العالم فيما بعد (٢٨).

بعد هذه الاشارة إلى اهمية العلم ومكانته ومنزلة العلماء في الاسلام ننتقل إلى دراسة اهم الطرق التدريسية التي اعتمدت في التعليم واسبقها لكي يتسنى لنا تصور طرائق التعليم واساليبه .

(٤)
حلقات التعليم

كانت الحلقة التي يلتف فيها الطلاب حول استاذهم هي الطريقة السائدة في الجامعات الاسلامية (٢٩) فقد ظهرت مبكرة، او قل انها ظهرت مع ظهور الاسلام، وتعددت الحلقات واستمرت ، ولاتزال حتى العهد الحاضر تحمل طابع الماضي المجيد (٣٠) حيث كانت تعقد في اماكن مختلفة كالمساجد وقصور الخلفاء والامراء ومنازل العلماء، والمكتبات (٣١) وبذلك تكون اقدم الطرق التي اعتمدت للتدريس وكان النبي(ص) اول من حلق الحلق وجمع الناس حوله لتلقي العلم،فمنذ ان جلس النبي (ص) في المساجد معلماً، صار التقليد ان يجلس العلماء وحولهم المستمعون(٣٢) ومما تجدر الاشارة اليه ان بعض الباحثين يفسر عملية«التحليق» هذه بأنها سلوك اجتماعي فطري

في عالمي الانسان والحيوان اذ تتجمع الافراد حول واحد منها يمتاز عليها من القيادة او السيادة ليدفعها نحو عمل من الاعمال او بحثها في أمر من الامور (٣٣) فالمدرس حينذاك كان محور العملية التعليمية ويتحمل الدور الرئيس في تهيئة الدرس واعداده ثم القائه على التلاميذ .عندئذ يكون دور التلاميذ مقصوراً على الاستماع والمشاهدة او ربما تدوين بعض الملاحظات (٣٤).

وكما هو معروف من امر المسلمين في صدر الاسلام ان عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة كان قليلا وكان الرسول(ص) يستخدمهم كلهم او جلهم للكتابة بين يديه.وكذلك اضطلع الذميون من اصحاب الديانات الاخرى بمهمة تعليم القراءة والكتابة للراغبين في تعلمها. (٣٥).

مما لاشك فيه بأن حلقات التعليم الاولى في الاسلام كانت تعقد في المساجد، والتي كانت بدورها مفتوحة،يقصدها من يأنس في نفسه الكفاءة لتعليم الناس، وكان التعليم مباحاً للجميع بطبيعة الحال (٣٦) كما ان العرب منذ صدر الاسلام، عرفوا المسجد الجامع، والصلاة الجامعة،وكانت المساجد اشبه بالجامعات بالمعنى الحديث،مثل مسجد قباء، وجامع المنصور في بغداد، وجامع الازهر في القاهرة، والجامع الاموي في دمشق،وجامع القيروان في تونس وجامع قرطبة في الاندلس، وجامع القرويين في المغرب، والجامع الكبير في صنعاء اليمن، وما كان يدرس بها لم يكن العلوم الدينية فحسب وانما كانت تدرس بها علوم متعددة ومختلفة من طب وفلك وغيرها من العلوم الاخرى (٣٧).

الا أن التطور في المؤسسات التعليمية يشير بوضوح إلى حقيقة مهمة وهي أن نواة التعليم انما كان لتدريس علوم الدين ، ثم مالبث ان ازداد اقبال الناس واهتمامهم بطلب العلوم الاخرى.. (٣٨) .

كان على الشيخ او الاستاذ يجلس إلى احد اعمدة المسجد مستنداً اليه ومتجهاً إلى القبلة. وكان بعض العلماء يختص بعمود معين يجلس اليه طيلة حياته التعليمية، حتى يعرف العمود باسمه (٣٩).

وكان الشيخ يجلس علـــى خشبة صغيرة او على منصة وكانت تعرف بـ «السدة» — متكئاً إلى العمود او الحائط، ويكون الحضور حلقة امامه ،ويكون الاستاذ في ابرز نقطة في محيطها. ويجلس المستمعون بحسب ترتيب معين، لكل طبقة منهم مكان معين فيها فيجلس المعيدون والممتازون من الزوار عن يمين الشيخ ويساره ويجلس الرفقاء في درس واحد في جهة واحدة من الحلقة ليكون نظر الشيخ اليهم جميعاً. ويترك في الحلقة فراغ ليجلس فيه من يحب ان يستمع إلى الدرس من الداخلين او الذين لايحضرون الدرس بانتظام (٤٠).

كان الشيخ يفتتح الدرس بالبسملة والحمد لله وبالصلاة والتسليم على الرسول وعلى آله وصحبه، وربما قرأ آيات من الذكر الحكيم، او بضعة أحاديث للرسول (ص) حاثاً فيها الطلاب على طلب العلم والمعرفة، اذا كان الدرس في علوم الحديث، ثم يملي الشيخ ماعنده من المادة العلمية ويستخدم في املائه مساعداً يسمى« حملياً» يردد وراءه مايقوله حتى يبلغ السامعين صحيحاً سليماً خالياً من شوائب الخطأ والتحريف، ومتى فرغ من الدرس ختمه بقراءة الفاتحة وعين لطلابه موضوع الدرس المقبل (٤١).

اما الموضوعات التي يعلمها المدرس لم يكن ملزماً بتعليم موضوع معين بذاته،بل كان يعظ الناس بما يعرف ويغنيهم مااستطاع إلى ذلك سبيلا. ومادام لايتقاضى من الدولة اجرا على عمله، فقد ترك له ان يدرس ماشاء في الوقت الذي يشاء(٤٢). وبعد انتشار المدارس في العالم العربي الاسلامي، تصدرت المدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية المكانة العظيمة، وظهر التخصص عند العلماء، كما ان التعليم تحول من مجرد التدريس في حلقات إلى تعليم منظم يجري وفق قواعد صارمة (٤٣).

(٥)

الرواية

كانت الرواية من النظم الاساسية التي يقوم عليها التعليم الاسلامي، ولو تقصينا سبب الاهتمام بالرواية نجد أن ذلك يرجع إلى طبيعة العقل العربي وما

يمتاز به من قدرة فائقة على الحفظ فأصبحت الوسيلة المثلى في نشر الثقافة. وكانت متمثلة في الشعر، فكان لكل شاعر في الجاهلية راوية يحفظ شعره ويروي عنه، وكثيراً مايكون الراوي نفسه شاعراً. وعند مجيء الاسلام، أصبحت الرواية مادة صالحة، وتركز بشكل خاص على حفظ ورواية الحديث النبوي الشريف فكان الاعتماد يقوم على الرواية فيما سمعه أصحاب النبي من أحكام وارشادات او غيرها.. وبعد ذلك شاعت الرواية في العلوم الاسلامية الاخرى من فقه وعلم الكلام وغيرها وصار من لوازمها الاسناد. وهو التحري في نسبة الاقوال إلى اصحابها من أجل توثيق وتقوية وضمان صحة تلك الاقوال (٤٤).

(٦)
السماع

لقد كثر السماع والحفظ، نظراً لما اعتاد عليه الطالب من الحفظ اعتماداً على حافظته القوية التي تعوض عن الكتب لعدم انتشار القراءة والكتابة، فكانت رواية العلم في القرن الاول للهجرة قائمة على السماع وحده. ورغم انتشار الكتابة فيما بعد فقد ظل السماع وسيلة قائمة من وسائل اخذ العلم. فكانت المؤلفات العلمية تروى عن صاحبها بالسماع منه.. وكان العرب يفاخرون بكثرة الحفظ وسرعته فيقال فلان يحفظ كذا من الشعر وكذا من الامثال (٤٥).

وقد حملت لنا المخطوطات العربية كثيراً من عبـــارات السماع، منها، سماع الحافظ ابي الفضل محمد بن ناصر اسلامي المكتوب بخطه. وكان من عادة من يسمع شيئاً عن استاذه تدوين ماسمعه مسجلاً اسم استاذه واسمه هو وتاريخ ذلك ويسميه «سماعاً» (٤٦).

ان في هذه الطريقة محاذير، وربما كان السبب في اختلاف نصوص بعض الكتب التي وصلتنا روايتها من طرق متعددة.

(٧)
الاملاء

تعتبر طريقة الاملاء من ابرز الطرق التي اعتاد عليها معظم العلماء في حلقاتهم ومدارسهم حيث كان الاستاذ او العالم يرتجل علمه على الطلبة من دون الاستعانة بكتاب ، وعلى الطلبة تدوين ما يتلى عليهم ومذاكرته فيما بعد (٤٧) خاصة اذا كان المدرس يلقي من محفوظاته ، او من مذكراته التي كتبها في سني التحصيل فيقرأ منها على التلاميذ ما يشاء وان الدرس عندئذ يسمى املاء (٤٨) .

وطريقة الاملاء ربما كانت من احدى نتائج انتشار الورق والكتابة ، وذلك يشير الى مرحلة من مراحل التطور في طرق التعليم بعد ان كانت الطريقة المعتمدة هي السماع . والفرق بين الاملاء والاسماع ان الاستاذ في الاولى لايهتم بكتابة طلابه لما يقوله فيتحدث وهم يسمعون منه . ومنهم من يكتب ومنهم من لايكتب . اما في الاملاء فان القاء الدرس يكون بطيئاً فقرة فقرة او حديثاً حديثاً مع اتصال السند ، ويكتب الطلاب خلف المدرس ما يمليه وبعد انتهاء المدرس من القاء حديث او فقرة مستقلة يعرج بالشرح والايضاح والتفسير لما يكون قد غمض في الفقرة او الحديث . فاذا ما اكتملت امالي الشيخ في ذلك الموضوع فانه ربما قرأ الامالي او قرئت عليه لتصحيحها عندئذ يلتزم بملاحظة الدقة في النقل وفي التصحيح . وكانت مجموعة المحاضرات التي تلقى بطريقة الاملاء تسمى «الامالي» ومنها تكونت المخطوطات التي طبع الكثير منها فاصبحت كتباً شهيرة وما يزال المخطوط منها حتى الآن(٤٩) ومنها المطبوع مثـــل امالي ابي علي القالي ، التي املاها في جامـــع الزهراء بقرطبة ، وامالي الشريف المرتضى ببغداد وكانت تلك الامالي ايضاً تسمى بالمجالس ومثالها «مجالس ثعلب» في اللغة .

وكان الاملاء قرين الاجتهاد ، ولما ضعفت حركة الابتكار وقل الاجتهاد اخذت طريقة القراءة تحل تدريجياً محل الاملاء حتى ظهرت الدعوة الى غلق

باب الاجتهاد في الفقه في القرن الرابع الهجري فاخذ الاملاء يختفي شيئاً فشيئاً من التعليم الاسلامي (٥٠) .

(٨)

القراءة

كانت هذه الطريقة وسيلة اخرى من وسائل التدريس والرواية العلمية، اذ كان الدرس يلقى من كتاب يمكن الحصول عليه وكان المتبع ان يحصل الطالب على نسخة منه، وملخص هذه الطريقة ان يقوم احد الطلبة بقراءة كتاب يختاره الاستاذ ، وحده او مع احد زملائه قبل ان يلقيه المدرس ، ويقوم الاستاذ بعد ذلك بشرح الغامض من الفقرات والجمل ويعطي فكرة عامة عن موضوع الدرس ، ثم يبدأ قراءته في الكتاب ، والطلاب يستمعون اليه ناظرين في نسخهم ، ويقطع الاستاذ قراءته من حين لآخر بالتعليق على الفقرات ومقارنتها مع غيرها (٥١) .

ومن نتائج هذه الطريقة «تقرير» كتب معينة على الطلاب يدرسونها بمعونة الاستاذ ، مذهب بعض الباحثين الى ان هذه الطريقة جانب ايجابي يتمثل في ما ظهر من شروح ومختصرات كان لها اهمية كبيرة منها رحلة الطلبة لمسافات طويلة من اجل الحصول على تلك الشروح ، ومنها ايضاً وضع مؤلفات في علوم كثيرة تشرح العلوم للطلبة باسلوب تربوي يغلب عليه الجانب التعليمي (٥٢) .

أما الجانب السلبي لهذه الطريقة فيشير اليه أحد الباحثين وذلك باقتصار التعليم الجامعي على مجموعات معينة من الكتب يدور العقل في فلكها ولا يتجاوز الى سواها . وحصر جهود الطالب في الحفظ والقراءة فقط ، وتكرار أقوال السابقين من غير اضافة او تجديد (٥٣) واعتبر الملخصات والمنظومات من جملة البدع التي برزت في الجوانب التربوية والتعليمية .

(٩)

مراحل التعليم

كما هو معروف في الوقت الحاضر أن مراحل التعليم تنقسم في أغلب الدول المتمدنة إلى أربعة : التعليم الابتدائي ، والثانوي ، والجامعي ، والدراسات العليا . ومما يدعو للدهشة ان هذه المراحل كانت متبعة ومتميزة في العصور الوسطى عند المسلمين . وعلى الرغم من غياب الحدود الفاصلة بين مرحلة واخرى كما هو متبع حالياً الا أنهم اقروا هذا التطور الطبيعي فاتبعوه في معاهدهم (٥٤) فكان الطلاب يقسمون حسب مقدار تحصيلهم العلمي الى طبقات ثلاث :

آ — طبقة المبتدئين وتضم الطلاب الذين يكونون في بداية حياتهم العلمية ، وقد وجد هذا النوع من التعليم الابتدائي في الكتاب حيث كان التلاميذ يتلقون مبادىء عامة يسيرة عن بعض الموضوعات .

ب — طبقة المتوسطين وهي تعلو الطبقة السابقة وقد وجدت في المسجد حيث تعقد فيه الحلقات — كما ذكرنا سابقاً — ويختلف مستواها : فمنها ما هو الى الاجمال والوضوح اميل وهذه اقرب الى التعليم الثانوي ومنها ما هو ارفع مستوى واكثر عمقاً وتلك بالتعليم الجامعي اشبه .

ج — الطبقة العليا وتشمل طلاب المرحلة المتقدمة في الدراسة (٥٥) ولهذه الطريقة في التقسيم للمراحل الثلاث دلالة واضحة على صحة وسمو المناهج التربوية الاسلامية، ومن الملاحظ ان التقسيم لم يكن وفق سني عمر الطلبة وانما كان ذلك بسحب مقدرته وكفاءته العلمية يوضع الطالب في المرحلة او الطبقة التي يستحقها. ولربما يعزد ذلك إلى انعدام المدارس في العصر الاسلامي الاول، ولكن بعد تأسيس المدارس في العالم الاسلامي كان الملاحظ ان مستوى المدرسة يتوقف على مستوى من يعين فيها للتدريس، ثم بعد ذلك تحددت اعمار الطلبة الذين يدرسون في المدارس.

(١٠)
وسائل التحصيل

بعد ان تناولنا اهم الطرق التعليمية يجدر بنا ان نشير إلى اهم الوسائل التي كانت تعتمد في الطرق التربوية والتعليمية والتي انحصرت في الحفظ والدراية والفهم ، والسؤال والمناقشة ثم المناظرة والمذاكرة واخيراً الرحلة في طلب العلم وهذه الوسائل ترتبط ارتباطاً مباشراً بما ذكرناه من الطرق التعليمية. من اهم الوسائل التي اعتمد عليها العالم والمتعلم في تحصيل العلم ، الاعتماد على الذاكرة والحفظ ، وهناك عوامل عديدة في انتشار هذه الطريقة منها ، صعوبة الكتابة والحصول على ادواتها في القرن الاول الهجري ، وتشجيع النبي (ص) المسلمين لحفظ القرآن الكريم مما ادى إلى نشوء طبقة الحفاظ كما عد حفظ القرآن الكريم من الشروط الاساسية لاستكمال التعليم ثم ظهور علم الحديث والتحقق من صدق الاحاديث . ولايتحقق ذلك الا بالحفظ واخيراً نشوء علم اللغة التي تعتمد الذاكرة في استيعابها (٥٦).والعناية بالحفظ واهميته دفعت علماء الاسلام إلى البحث في مقرياته ،ويبدى «الزرنوجي» بعض المقترحات والنصائح على قوة الحفظ منها، تكرار ماحفظه الطالب بالامس وقبل الامس عدة مرات لانه ادعى للحفظ، وتلك وسيلة معروفة إلى اليوم. كما يحدد اقوى اسباب الحفظ بالجد والمواظبة وتقليل الغذاء وصلاة الليل وقراءة القرآن الكريم.

ومن جملة النصائح ايضاً ،الابتعاد عما يورث النسيان كالمعاصي والذنوب والاحزان... الخ والانصراف للتحصيل (٥٧) وقد انتقد «ابن خلدون» هذه الوسيلة واعتبر عناية طالب العلم بالحفظ عناية اكثر من الحاجة قائلا « لايحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من يرى منهم انه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه ان فاوض او ناظر اوعلم» (٥٨) .

لقد أولى رجال التعليم الاسلامي « الفهم » أهمية بالغة فقسموا العلم الى قسمين الرواية التي تقوم على الحفظ والدراية التي اساسها الفهم . وقد أشار القرآن

الكريم إلى «العقل» و «التفكير»وحث على إعمال العقل واذكاء الفكر وقدح الذهن (٥٩).ويشير « ابن خلدون» إلى أهمية هذه الوسيلة ويحذر من تلقين أو تعليم الصغير العلوم دفعة واحدة بل يجب أن يكون بالتدرج به من الاقل سهولة إلى الاسهل وذلك بتلقين المتعلم مسائل يسيرة من علم ما وشرحها شرحاً يتفق مع استعداده لقبول العلم فيصبح العلم عنده ملكة قابلة للنمو والتقبل والاستيعاب وانها كافية لأن تهيئه لفهم ذلك العلم وتحصيل مسائله (٦٠) ومن الجدير بالذكر ان السؤال والمناقشة ضرورة مهمة لاستكمال العملية التعليمية ومن أجل تحقيق الغاية لاعانة الطالب على الفهم لذلك نجد أن هذه الطريقة كانت تمثل احدى الطرق الرئيسة التي تستخدم في تدريس العلوم حتى الوقت الحاضر ، لذلك تبرز أهمية هذه الوسيلة من خلال اشراك الطلبة في مناقشة ما يتعلمونه،كما عد الحياء في السؤال من آفات العلم (٦١) ويشار إلى ذلك على أن « أيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها » (٦٢) وكان لكل طالب الحق في أن يسأل لاستيضاح ما صعب عليه فهمه وكان على الطالب أن يسأل تفقها لاتعنتا ولارياء، وعليه اختيار الوقت المناسب لالقاء سواله ، فلا يقاطع مدرسه وهو يتكلم ولا زميله وهو يسأل (٦٣) .

يتبين مما سبق أن للمناقشة والسؤال بين الطلاب واستاذهم آداباً خاصة تكفل للاستاذ هيبته ومكانته وفي الوقت نفسه تحقق للطالب حرية الرأي. وقد اشار « القرطبي » في فصل من أبواب آداب العالم والمتعلم إلى أهمية المناظرة ، وروى عن الخليل بن أحمد قوله : « اجعل تعليمك دراسة لك ، واجعل مناظرة العلم تنبيها بما ليس عندك (٦٤) والعلاقة بين الاستاذ والطالب يجب أن تكون قائمة على اساس الاحترام، والاستاذ عليه أن لايهزأ برأي الطالب ولا يزدري المساكين من طلابه، وكان الطلاب يشجعون على أن يسألوا بشرط أن تفتح اسئلتهم آفاقاً جديدة ، فاذا حدث ووجه سؤال تافه للمدرس فاذ ذلك ربما أثار الضحك أو السخرية (٦٥) .

ومن الاساليب التي كان يلجأ اليها في تنظيم المناقشة والاسئلة أن تدون الاسئلة في رقاع وتقدم إلى المحاضر ثم يبدأ بالاجابة عما ورد فيها (٦٦).

وهذا هو عين ما يتبع في جامعاتنا في اعقاب المحاضرات والندوات العامة والاجتماعات وهذه برأي الباحث تبرز ديمقراطية التعليم العربي الاسلامي وحرية الفكر من ناحية ، ومن ناحية أخرى تشير الى اتساع افق التعليم والثقافة لدى العرب باتباع انجع الوسائل من أجل تطوير التعليم باعتماده اسلوب المناقشة والسؤال .

ومما لاشك فيه ان لطريقة السؤال والمناقشة مزايا عديدة إلى جانب ماذكرناه اعلاه ، حيث ان الطلبة يكونون اكثر استمتاعاً في الدرس نتيجة المشاركة في المناقشة، كما انها تعطي لهم فرصاً للتفكير بعمق ومزاولة العمليات العقلية كالتحليل والاستدلال والاستنتاج.. الخ. وتساعد في الوقت نفسه المدرس على معرفة مدى فهم الطلاب لما درسوه من مواد. اما الغرض من السؤال فلا يكون بتلقي الجواب الصحيح بقدر ما هي وسيلة لتوجيه الطالب وحثه على التفكير بانتظام وهو ماتستهدفه الفلسفة التعليمية، لذلك فان استخدام الاسئلة في التدريس بصورة صحيحة يعدّ وسيلة مهمة في نجاح العملية التعليمية كذلك ويتوقف هذا النجاح على نوع الاسئلة المطروحة (٦٧) .

ومن الوسائل التي اعانت على بث الروح العلمية « المناظرة » كانت غالباً ما تعقد بين الاساتذة، وكان لها فضل كبير على توسيع افق التفكير وتنمية العقول. وتعد من اقدم الوسائل عند المسلمين، خاصة في مجادلتهم اهل الكتاب التي تمثل خصومة في الرأي واعتماد اسلوب البرهان والحجة. وكانت المناظرة في القرن الثاني الهجري افضل الوسائل التي اعتمدها الفقهاء لاستنباط حقائق الفقه واستخراج اصوله وقد ظلت المناظرة عاملا من عوامل النشاط الفكري الاسلامي. واصبحت «علماً» محدداً بعد ان كانت اداباً يسيرة وارشادات .. وتعددت اغراضها ومراميها (٦٨).

إلى جانب ماذكرنا من وسائل التحصيل العلمي ينبغي الاشارة إلى« الرحلات لطلب العلم » لما لها من اهمية في التعليم والتعلم. فقد ذهب الطلاب المسلمون إلى مسافات بعيدة لطلب العلم في وقت كان فيه السفر شاقاً والرحلات مجهدة وقد حدد« ابن خلدون» فصلا يبين فيه ضرورة الرحلة واثرها في كمال التعلم «فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال » (٦٩) . وكانت قيمة الطالب في نظر الناس تتناسب مع ما قام به من رحلات لطلب العلم؛ ومع عدد المدرسين الذين تلقى عنهم ، وكل هذه الظروف شجعت الطالب ودفعته لتلقي افانين من العلم في أي بقعة من بقاع الارض .. كما شجع الطلاب والباحثين على السفر لما كانوا يلاقونه من تسهيلات وعون لاينقطع في كل خطوة يخطونها وفي كل بلد ينزلونه ، لما اوصى به الاسلام من البر بابناء السبيل ورعاية المسافر والعطف عليه (٧٠) .

كما أن العادة قد جرت بأن يزود بعض الاساتذة طلابهم قبل ارتحالهم بخطابات توصية يوصونهم فيها بهم خيراً ، خاصة اذا كان الطالب من أهل التفوق والنجابة .. ويظهر ان الرحلة في سبيل الدراسة كانت أمراً شائعاً في العصور الوسطى في الشرق والغرب على حد سواء .. (٧١) .

وقصارى القول ، تركت الرحلة آثارا طيبة في تاريخ الفكر الاسلامي ، فكانت رافداً غنياً بالخير والنشاط الدائم ، وسبيلا نافعة الى تحقيق التبادل الثقافي والتعاون الفكري بين جامعات الاسلام وبلدانه كما كان الاهتمام بالرحلة ضرباً من ضروب التحقيق العلمي .

هوامش البحث

(١) د. احمد فؤاد الاهواني : الكندي فيلسوف العرب ، مصر ، بلا تاريخ ، ص٣١ .

(٢) مجلة صوت الطلبة : — البعد الحضاري وآفاق الغد المشرق ؛ عدد ١١٧/تموز /١٩٧٨ السنة التاسعة ، ص٢٨ — ٢٩ .

(٣) التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي ، القطر العراقي ، كانون الثاني ١٩٧٤ ، ص١٤٩ .

(٤) محمد عبد الرحيم غنيمة : تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى ، المغرب ١٩٥٣ ، ص١٧٧.

(٥) د. ياسين خليل : التراث العلمي العربي ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ج١ — ص٧٥ .

(٦) مجلة صوت الطلبة : عدد ١١٧/ تموز ١٩٧٨ ، ص٣١ .

(٧) حكمت عبدالله البزاز : واخرون: التربية في ظل الثورة ، بغداد ١٩٧٨ ، ص١٩—٢٠ .

(٨) جوردن تشايلد : ماذا حدث في التاريخ ، القاهرة ، بلا تاريخ ص١٣٣ .

(٩) د. عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ، ط٥ مصر ، ١٩٧٣ ، ص٢٦ .

(١٠) د. جابر عمر : المدخل في التربية ، ط٢ بغداد ، ١٩٥٤ ، ص٢٩ .

(١١) المصدر نفسه : ص٣١ .

(١٢) عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ، ص٢٨ .

(١٣) جابر عمر : المدخل في التربية ، ص٣٤ .

(١٤) المصدر نفسه : ص٥٤ .

(١٥) المصدر نفسه : ص٥٥ .

(١٦) د. جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ط١ بيروت ١٩٧١ ، ٢٩٨.

(١٧) المصدر نفسه : ٢٩٧/٨ — ٢٩٨ .

(١٨) د. احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص١٨٩ .

(١٩) (٢٠) (٢١) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب ، ٢٩٨/٨ .

(٢٢) د. سعد مرسي احمد : تطور الفكر التربوي ، ط٣ القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ١٨٢ .

(٢٣) انظر جلال مظهر : حضارة الاسلام واثرها في الترقي العالمي ، مصر ، ١٩٧٤ ، ص ٢٣٧ . د. عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ، ص٥١ ، د. سعد مرسي احمد : تطور الفكر التربوي ص١٨١ ، ١٨٣ .

(٢٤) انظر : القرآن الكريم : سورة البقرة آية ١٢٨، سورة طه — آية ١١٤، سورة الزمر — آية ٩ .

(٢٥) ابو العباس احمد القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشا ، القاهرة ١٩١٧، ٣ / ١٥

(٢٦) جلال مظهر : حضارة الاسلام ، ص ٢٣٧، د. سعد مرسي احمد تطور الفكر التربوي ص ١٨٣ .

(٢٧) الغزالي : فاتحة العلوم ، القاهرة ١٣٠٩هـ ، ص١٩ .
(٢٨) سعد مرسي احمد : تطور الفكر التربوي ص ١٨٥ .
(٢٩) محمد عبد الرحيم غنيمة : تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى ، ص ١٧٧ .
(٣٠) احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ٣٦٨ .
(٣١) عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ، ص ٥١ .
(٣٢) سعد مرسي احمد : تطور الفكر التربوي ، ص ٢١٥ .
(٣٣) محمد عبد الرحيم غنيمة : تاريخ الجامعات ، ص ١٧٨ .
(٣٤) د . رؤوف عبد الرزاق : اتجاهات حديثة في تدريس العلوم ، بغداد ١٩٧٦ ، ص ٧٠ ، ويشير إلى ضعف هذه الطريقة في الوقت الحاضر ويرجع سبب ذلك إلى انعدام الفرصة امام التلاميذ للمشاركة الفعالة في فعاليات الدرس ، من ناحية ، ويشير من ناحية اخرى إلى الجانب السلبي من العملية باعتبارها تقعدهم عن التعليم السليم ويضعف ميلهم نحو دروس العلـــوم .
(٣٥) عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ، ص٥١ ، ص ٥٥ — ٥٦ .
(٣٦) المصدر نفسه : ص٦٨ واحمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، ص١٩٣ — ١٩٤ .
(٣٧) انظر : عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ، ص٢٨٤ ، حسين امين : المدرسة المستنصرية ، بغداد ، ١٩٦٠ ، ص ١١ — ١٥ .
(٣٨) ياسين خليل : التراث العلمي العربي ، ١ / ٧٤ .
(٣٩) سعد مرسي احمد : تطور الفكر التربوي ، ص٢١٤ ، محمد عبد الرحيم غنيمة : تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى ، ص ١٧٨ .
(٤٠) (٤١)احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، ص٣٦٨ ، انظر ايضا : سعد مرسي احمد : تطور الفكر التربوي ، ص٢١٥ ، محمد عبد الرحيم غنيمة : تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى ص ١٧٩ .
(٤٢) احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ١٩٣ — ١٩٤ .
(٤٣) ياسين خليل : التراث العلمي العربي ، ١ / ٧٤ .
(٤٤) محمد عبد الرحيم غنيمة : ص ١٨٠ — ١٨١ .
(٤٥) المصدر نفسه : ص ١٨١ — ١٨٢ ؛ جابر عمر : المدخل في التربية ، ص ٦٥ .
(٤٦) محمد عبد الرحيم غنيمة : ١٨٢ .
(٤٧) ياسين خليل : التراث العلمي العربي ، ١ / ٧٥ .
(٤٨) احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ٣٦٩ .
(٤٩) المصدر نفسه : ص٣٦٩ ، محمد عبد الرحيم غنيمة : ص١٨٣ ، ١٨٦ .
(٥٠) محمد عبد الرحيم غنيمة : ص١٨٤ .
(٥١) المصدر نفسه : ص١٨٦ ، احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، ص٣٧٠ ، ياسين

خليل : التراث العلمي العربي ، — ١ / ٧٥ .

(٥٢) احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، ص٣٧٠، ياسين خليل : التراث العلمي العربي ١ / ٧٥ .

(٥٣) محمد عبد الرحيم غنيمة : ص ١٨٧ .

(٥٤) احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ٣٧٣ .

(٥٥) المصدر نفسه : ص ٣٧٥ — ٣٧٦ .

(٥٦) انظر للتفصيل محمد عبد الرحيم غنيمة : ص ١٩١ — ١٩٥ .

(٥٧) برهان الاسلام الزرنوجي : تعليم المتعلم وطريق التعلم ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص٤١، ٥٥، ٥٦ ، ٥٧ .

(٥٨) ابن خلدون : مقدمة ، ب . ت ، ص ٤٣٢ .

(٥٩) محمد عبد الرحيم غنيمة : ص ١٩٧ — ١٩٨ .

(٦٠) ابن خلدون : مقدمة ، ص ٥٣٣ .

(٦١) رؤوف عبد الرزاق : اتجاهات حديثة في تدريس العلوم ، ص٧١، محمد عبد الرحيم غنيمة : ص ٢٠١ .

(٦٢) ابن خلدون : مقدمة ، ص ٤٣١ .

(٦٣) احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ٣٧٢ .

(٦٤) أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي : جامع بيان العلم وفضله ، صححه وراجع اصوله عبد الرحمن محمد عثمان ، ط٢ القاهرة ، ١٩٦٨ ، ١/١٥٧ ، ١٥٨ . انظر ايضا فيما يتعلق بوسائل التعليم ، فصل في منازل العلم ، فقد اشار إلى ان «اول العلم الانصات ، ثم الاستماع ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر » انظر : ص ١٤٣ .

(٦٥) احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ٣٧٢ .

(٦٦) محمد عبد الرحيم غنيمة : تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى ، ص ٢٠١ .

(٦٧) رؤوف عبد الرزاق : اتجاهات حديثة في تدريس العلوم ، ص٧٢، ١٤٩، ٨١ — ٨٢ .

(٦٨) محمد عبد الرحيم غنيمة : ص ٢٠٤ — ٢٠٨ .

(٦٩) ابن خلدون : مقدمة ، ص٥٤١، انظر ايضا : القرطبي ، جامع بيان العلم وفضله ، ص ١١١ — ١١٤ .

(٧٠) احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ٣٠٨ — ٣١٦ .

(٧١) محمد عبد الرحيم غنيمة : ص ٢١٤ — ٢١٦ .